

الرجوع إلى السعادة البدائية [أو فرح البدء]

عند الحكيم الترمذى وابن عربى

أ.د. جنيف جوييو *

بهذا العنوان نريد أن نشير إلى فكرة نادرة جداً فى تاريخ الفكر الدينى بشكل عام ، وخاصة فى مجال الأديان التوحيدية السماوية المنزلة. أما فى الميدان الإسلامى فنجدها فقط عند أقلية من الفلاسفة [والكندى منهم] ومن الصوفية والروحانيين مثل الحكيم الترمذى وابن عربى ، وهى اعتقاد رجوع بنى آدم كلهم إلى الحالة التى كانوا عليها فى البدء ، قبل كل خلق وكل وجود بخروجهم جميعاً وبدون استثناء من النار أو نجاتهم من عذابها فى آخر الزمان .

سنبدأ بالفحص عن آراء الحكيم الخراسانى لأنه سبق المفكر الأندلسى فى بيان هذه الفكرة وأيضاً لأنه بحسب ما وجدناه حتى الآن أول الروحانيين الذين تكلموا فى هذا الموضوع .

أما ابن عربى ، مع أنه قد عاش بعد أكثر من ثلاثة قرون بعد الترمذى فهو ثانيهم . وبالفعل لا نعرف فى تلك الفترة الطويلة التى تقع بينهما أى مفكر صوفى آخر أشار إلى هذه النقطة ، وقد وجدنا أيضاً

* أستاذة الدراسات الإسلامية بجامعة ليون - فرنسا

بعض العناصر التي تشهد بأنه يوجد هناك تأثير من الحكيم الترمذى على فكر ابن عربى فى هذه المسألة كما يظهر فى موضوعات أخرى كثيرة أبرزها فكرة ختم الأولياء .

إن لفكرة الرجوع هذه صلة قوية ومباشرة بما يسمى النور المحمدى أو الحقيقة المحمدية عند الصوفية ، وسوف نرى أيضاً أن تصوراتهم لماهية الفريوس تختلف عن مفاهيمها المختلفة لهذا التصور.

فرح البدء فى منهج الحكيم الترمذى .

يستعمل الترمذى العبارة " فرح البدء " فى كتابه الصفاء فيقول :
" فى آخر يوم القيامة يترك الله الأعداء فى النار كأنهم لم يكونوا ، ثم يقبل على الأحباب بالفرح الذى كان فى البدء فإذا ظهر نلك الفرح منه بثته فى أهل الجنان " (1) . هكذا ظهر هذا الفرح المبدئى من عند الله ثم أصبح فرحاً بشرياً . لذلك نستطيع أن نقول إن للفرح معنيين : فرح الله وفرح الإنسان . وكل واحد منهما فرح مبدئى ولكنه مفهوم بالطبع أن الفرح الإلهى سبق الفرح الإنسانى وزيادة على هذا الفرح الأول ليس فقط أصل الثانى بل هو موجود فى أصل خلق كل نفس كما يشرحه الترمذى فى نصوص أخرى سوف نتناولها فيما بعد .

(1) مسألة فى الفتوى ، مخطوطة شستر بيتى ، مختارات كتاب الصفاء ، رقم 4459 ، ص 75 ب.

يصف الترمذى الفرخ الإنسانى الأصلى وأحواله بكل دقة فى كتابه غور الأمور وفى رأيه أن هذا الفرخ هو حالة الناس قبل خلق كل شئ فى الكون : " حيث لا أرض ولا سماء ولا عرش ولا كرسى ولا قدر ولا قضاء ولا شئ ولا مقادير . نظر [الله] إليهم فى هويته وفرديته وديمومته وقدمه فاجتباهم وهداهم واختارهم لنفسه وجعل أسماءهم عنده فى سابق علمه ليوم خروجهم ودينهم بين يديه فى غيبه المكنون ينظر إليهم وكنفه بالمحبة عليهم ويباهى بهم خلقه وخليقته حتى يمجدونه يثبتونه ويركعون ويسجدون له وحيث يسلمون سيوفهم النورانية من أغمادها مموهة بماء المحبة محددة بالمعرفة مثقلة بالإخلاص فيهزونها بالشوق بين يدى الجليل على بساط الفرخ فتلمع سيوفهم وتشرق منها أنوار فتحرق الحجب هيئته وتحير الملائكة سلطانه و تحرث الشرك والكفر نيرانه ويرتعد من الشوق إلى صاحبها عرش الجليل وينبع وتزهى جنان الفردوس من طيبة فيا له من عز ويا له من شوق لو كنت تعقل "(1).

إن هذا الفرخ فرح إقرار التوحيد وعبادة الله وهو إحساس خلق الإنسان كما يقول الترمذى فى كتابه الدرّ المكنون : " التدبير الأصلى الذى عليه الأساس هو تدبير العبودة "(2). وهذه عبودة فقراء رب العزة الذين هم بلا جسد ولا روح ولا إيمان ويدخلون الجنة خمسين ألف سنة

(1) غور الأمور للحكيم الترمذى تحقيق جنيف جويو حوليات إسلامية ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة 1994 ، المجلد الثامن والعشرون .

(2) [ولكن فى الجنة يكون الإنسان حرّاً] الدرّ المكنون ، مخطوطة ليبسغ رقم 212 / 2 ، ص 126 .

قبل الأغنياء وهى أن : " ترى نفسك قرآن ولا محمد ولا علم ولا دنيا ولا
آخرة ... أليس كان الله ولا شئ غيره وكنت فى سابق علمه كما خلقتك
فترى نفسك مع هذه الأشياء التى أعطاك فى سابق علمه فلما أبدا
شخصك فى الدنيا وأخرجك وصورك وركبك فى أجمل صورة وأحسن
تركيب وتقويم فأقبل هذا الجسد منه ثم حل فيه روحاً فأقبل هذا الروح
منه ثم أخرجك من بطن أمك ولا تعلم شيئاً ومن عليك بمعرفته فأقبل هذه
المنة منه ثم من عليك بمحمد فأقبل محمداً منه ثم من عليك بالقرآن
والهداية ... إلى آخره "(1).

وفى نظام الترمذى تكون هذه العبادة عبادة القلب لأنه فى رأيه
بدء أمر الإنسان بقلبه : " ابتداء نور التوحيد من القلب إلى الصدر ومن
الصدر إلى الجوارح "(2). نفهم من هذا ومن نصوص أخرى (3) أن هذه
العبادة بدأت قبل كل خلق حيث لم يكن الناس إلا قلوباً ، لذلك فى يوم
البال [أول قسم من يوم المقادير وقت الاختيار الأول لمشاهدة الإله] الذى
يخلف البدء ، يكلم الله القلوب [ولم يقل النفوس أو الأرواح] ،
و: "بالرحمة يغسل القلوب حتى تطهر"(4).

فمن كل ذلك يمكن لنا أن نقول إن فى وجهة نظر الترمذى البدء
هو أول مظهر لما يكون فى سابق علم الله . وهو يؤكد فى كتابه الصفاء

(1) الدر المكنون ، ص 126 ب.

(2) تفسير قوله (فأتاهم ثواب الدنيا) ، مخطوطة شستر بيتى ، ص 118 أ.

(3) كالأى يقول فيه إن العلم الذى على اللسان كان بدؤه من القلب مخطوطة شستر بيتى ، ص 136.

(4) الدر المكنون فى أسئلة ما كان وما يكون ، ص 161 ب ، 162 أ.

بأن البدء سبق المقادير ، ولذلك كان العباد هذا اليوم خاليين من كل خطيئة وكل سيئة وكل معصية فيقول : " فصاحب هذا - يعنى المعارف - خلص إلى المقادير فطالعها بقلبه ثم تخطى إلى البدء من قبل المقادير" (1) فمن هناك عرف الحسنات والسيئات وإنما صارت السيئات ذات حشمة بعد أن صارت السيئات فى المقادير حين ظهرت النفوس فأعرضت عن الله عز وجل وأقبلت على شهواتها ، ألا ترى أنهم إذا صاروا إلى الجنة حاضره الله عز وجل فى مجلسه محاضرة فقال تعالى له : أتذكر غدرك وفجرتك يوم كذا وكذا ؟ فلا يحتشم العباد من ذكرها فصار أمر العباد إلى الأمر الذى كان فى البدء قبل المقادير لأن المقادير وقت الابتلاء والعبودة فلما انتهى الابتلاء منتهاه وزالت العبودة عاد الأمر إلى مبدئه (2). إذن لما يقول الله : "رحمتى سبقت غضبى" يقصد ضمناً أنه بقوة هذا القول يغفر الذنوب ويبدل السيئات بالحسنات عندما يدخلهم الجنة ، " فنالوا التبديل مكان الشرك توحيد ومكان المعصية طاعة " (3). كذلك عند رجوعه إلى حالته الأولى من الإنسان بتبديل سيئاته بحسنات . إذن : "يتمنى العبد أنه قد استكثر من السيئات" ولهذا السبب يحفظ الله سر القدر وما حضره لعباده ، ومن الضروري أن تبقى هذه الرحمة محجوبة عن الناس: فإن فى نشر سر القدر اليوم حرمان الإيمان ". (4) ومثل ذلك " مثل رجل له ولد

(1) يقول أيضاً : فإنه [الإنسان] فى البدء وفى المقادير خلق الدرك المكنون، 127.

(2) مبالغة فى التقوى ، مخطوطة شمسرى بيتى ، ص 78.

(3) مخطوطة شمسرى بيتى ، 77ب.

(4) مخطوطة شمسرى بيتى ، 78ب .

وهو به معجب وعليه مشفق قد أعدَّ له فى خزائنه ما لا يحتمله اليوم
لصباه وضعف عقله .. حتى إذا أدرك مدرك الرجال واحتمل الوجدانية...
ثم جهزه من خزائنه التى أعدَّ له ⁽¹⁾. لأنه قدَّر برحمته ودبر بكل شئ
بالرحمة . وسبب ذلك أن رحمته سبقت غضبه وهذه الرحمة التى تسبق
غضبه هى الرحمة العظمى ⁽²⁾.

لهذه الرحمة العظمى وجهان : حب الله وفرح الله ولهذا الفرح
صلة مهمة بالنور المحمدي . ولكن فى نظام الترمذى : أصل أصول كل
شئ هو الحب وحده والحب الإلهى للمخلوقات وقتماً قرّر وجودهم . وأما
الفرح فله جانبان : الجانب الأول وهو يسمى أيضاً الرضوان ، ومسكنه
دار الله ، ينبثق مباشرة من الحب وهو سبب تكوين القلوب قبل خلق
الأرواح فى حالة تقرير التوحيد البدائية ومحمد أحدهم . ثم بعد ما أبصره
الله فى هذه الحالة ظهر الجانب الثانى للفرح الذى أخرجه الله من
الربوبية وهو سبب خلق كل نفس عن طريق خلق أبيهم آدم ، روحه ،
نفسه وبدنه وهم ذريته من أصلابه . يقول الترمذى : " أما الفرح الإلهى
فهو الفرح الذى فرح الله و أظهره وأخرجه من الربوبية فى الفردية
وأخرج من باب ذلك الفرح آدم عليه السلام وذريته فأصل الفرح كان
بمحمد صلى الله عليه وسلم وآدم كالقلب له ثم أعطى آدم من ذلك قسطه
فمن محمد جرى إلى آدم ولذلك صار اسمه مكتوباً على جبهة العرش

(1) مخطوطة شستر بيتى ، 78 ب.

(2) مخطوطة شستر بيتى ، 171.

ولذلك صار أول خطيب يوم القيامة وأول من تنشق عنه الأرض وأول شافع وأول داخل الجنة وأول زائر ولذلك صار اسمه حبيباً " والآخرون لم يظفروا بهذا الاسم . وبذلك برزت أمته على الأمم وصارت أول من يدخل الجنة من الأمم " (1).

ولهذا الفرح أيضاً نتيجة مهمة بالنسبة إلى الإنسان وهي أن الله عندما خلق أبا البشر ، استعجل بسبب فرحه بمحمد ولذلك خلق آدم وذريته على عجل . وبسبب هذه العجلة ، ارتكبوا الأخطاء والمعاصي : "أصل خروج الآدمي من باب الفرح خلقه الله بيده لأنه خلقه على صورته ففي وقت ما خلق جاءت عجلة الفرح فخلق آدم من نور العجلة ... وفي البدء كان خروجه من الفرح فلما كان أوان الخلقه ظهرت تلك العجلة حيث عجت الطينة ... إنه عار على الآدمي أن يكون ربه ومليكه أظهر خلقه من باب الفرح ليفرح العبد بربه ويفرح الرب بعبده فيدخل هذا العبد فرح الدنيا دنية وشهوة ردية فرد فرح الله " (2).

وهكذا بالنظر لما ورد آنفاً نفهم خير فهم فكرة الترمذي في أمر آدم : أنه مخلوق خاطئ ومن الطبيعي أن يغفر له الله لأنه بسبب فرحه صنع على هذه الصفة . وكذلك ندرك معنى طلب آدم في أمر المغفرة : " يا رب خطيئتي التي عملتها كتبته على قَبْلِ أن تخلقني أو شئ ابتدئته

(1) مخطوطة شمسرت بيتي تفسير (فأناهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة)، ص 16 ب، 117 أ.

(2) الدر المكنون ، مسألة أصل خروج الآدمي ، ص 20 أ.

من تلقاء نفسه ؟ قال لا بل كتبته عليك قال : فكما كتبته على
فاغفر لي⁽¹⁾.

إذا في هذا النظام يكون نور محمد سبب خلق آدم وذريته على
العجل وهم مخطئة وفي نفس الوقت يكون الخلق أصل المغفرة الإلهية
ومحمد هو أول شافع تدخل بفضل أمته الجنة قبل سائر الأمم .
ولكن عندما نقرأ أن أمة محمد سوف تدخل الجنة قبل الأمم نفهم
أن في رأى الترمذى سوف تدخلها كل الأمم بعد أمة محمد . وبالفعل هو
يؤكد بأن كل بنى آدم سوف يخرجون من النار في آخر الزمان ويصف
هذه الواقعة في كتابه (الأمثال) في الفصل المسمى (حياة أهل النار) حيث
يؤكد بأن كل نفر من أهل النار بعدما احتمل عذابه فترة من الزمان يخرج
منه بفضل الرحمة الإلهية : " وحياة أهل النار من غسالة أهل الجنة حين
يشربون من ماء الحياة على باب الجنة حتى تزول عنهم أدناس الآنمية
وأسقامها وأثقالها وأذاها فتجرى تلك الغسالة إلى باب النار فتسقى أهل
النار حتى يحيوا بتلك الغسالة ولا يتهنون بها فتلك حياة يجدون بها ألم
الحياة ، لا يجدون طيب الحياة فلا حياة ولا موت فهذا الموقف بين يدي
الله تعالى في العار والتخزية أشد عذاباً في ذلك الخوف والهول والحياء
من الذى أميت في النار والنار تحرق جسده والرحمة من الله تعالى

(1) مخطوطة شستر بيتى ، من 81 ب.

محيطه به لا يزال يقتضى بها نجاته وخلاصه حتى يخلصه الله تعالى ثم يرمى به إلى الجنة طاهراً⁽¹⁾.

إن تصبح النار عند الترمذى مكان تطهير كما يشرحه فى هذا النص : " السكين يذهب ماؤه وحدته من كثرة ما يقطع به الأشياء ... وكذلك القلب من كثرة ما يستعمل فى أمور الدنيا فيحتاج أن يعالج كما يعالج السكين فتحمى بالنار ... كذلك القلب يحمى بناره وهو ترك الشهوات حتى تصل إليه حرارة المنع فيصفو من الكدورة التى فيه "⁽²⁾. ولكنه يبقى هناك سؤال واحد . لو خرج من النار كل مسلم بفضل محمد وبسبب الفرع منه ، ما هو سبب خروج الباقي ؟

يعطى الترمذى الجواب التالى : إن سبب هذا الخروج ليست هى شفاعه مثل شفاعه محمد للأمم ولكن علتة حب الله لمخلوقاته وهذا الحب أقدم وأقوى من الفرع كما يقوله : " لما خرجت كلمة التسييح إنما خرج نور الحب سائاً بعضه على آثار بعض متداركاً لئنه فرحه بمحمد والفرع غلبه الحب "⁽³⁾. إن الحب يتجاوز الرحمة . ويضيف الترمذى كذلك : " وكل سعة من ذلك العلم [يعنى بحور العلم بالله المتضمنة لأسماء الله] تملأ ما بين العرش والثرى وكل اسم للعبد به متعلق ... ووسيلة يتوسل بها على ربه وكل اسم له شفيع إلى ربه وهذه جوهرة مكنونة تملأ الدنيا

(1) الأمثال من الكتاب والسنة ، تحقيق على محمد الجاوى القاهرة ، 1975 ، ص 297.

(2) مخطوطة شستر بيتى ، ص 79 ب.

(3) كتاب علم الأولياء ، رقم غوثغان ، مخطوطة 256 ، ص 291.

والآخرة وتملاً الملكوت وفوق العرش فنال الموحدون هذا من جود الله عظيم رأفته وواسع رحمته وأسُ هذا الجواهر حبُّ الله تعالى والفرح به فإن الله تبارك اسمه لم يُعطِ ذلك أحداً حتى أحبه وفرح به وأبدأ خلقه من باب الحب والفرح ⁽¹⁾. نرى أن هذا الحب أقدم وأقوى من الفرح وهو يوسع على الكون كله . إذا في البداية كان الناس كلهم موحدين وعابدين له وكلهم خلقوا من باب الحب أصلاً ، ثم من باب الفرح ، وأخيراً هذا الرجوع ليس هو رجوع إلى مكان ما أو إلى حالة ما ولكنه رجوع إلى حضور الله نفسه ، يقول الترمذى : " يرجع دائماً بدء كل شئ إلى الله : فإن كسب العبد وعمل المؤمن فبدؤه من الله ⁽²⁾ وأيضاً الرجوع فهو من وجهة نظره : " لا يكون إلا إلى من كنت عنده مرة ولولا ذلك لم يُسمَّ مرجعاً ⁽³⁾. نفهم ذلك من نص يشرح فيه الترمذى الفرق بين آتى "ممدودة الألف" وآتى "مقصورة الألف" فآتى ممدودة الألف "معناه أعطى على نحو المثال : " آتاهم ثواب الدنيا " ولكن آتى مقصورة الألف معناه أعطى نفسه إياه ⁽⁴⁾.

ولم يرفض أحد هذا العطاء . بعضهم استطاعوا رفض المنة ، يعنى منة العلم ، منة القرآن أو منة محمد ، ولكنهم كلهم قبلوا الحضرة الإلهية والحب الإلهى ، الذى عرفوه عندما كانوا على الفطرة ، وهذا

(1) علم الأولياء ، ص 62.

(2) علم الأولياء ، ص 172.

(3) علم الأولياء ، ص 40.

(4) مخطوطة مسند بيتى ، ص 117 أ.

الحب الأصلى الذى يغلب العظمة هو الحالة التى يرجعون كلهم إليها بعد عملية تطهير القلوب فى النار كما يدخل المؤمنون الجنة يوم القيامة بفضل الفرع الأصلى .

وبسبب هذا الحب أيضاً يترك أهل الجنة مكاتهم لمحل القرية التى هى مجلسهم البدائى ويحدث ذلك بفضل الجانب الأول للفرع : فالرضوان هو ذلك الفرع وهو مخزون عن جميع الجنان وهو فى دار الله تعالى ومقصورة الرحمن فى جنة عدن فالرضا فى الموقف يعطيهم رضاه فيرضى عنهم حتى يدخلوا الجنة وينعموا مدة " ثم ينادى منادى الزيارة فإذا زاروه حل عليهم رضوانه أى فتح باب ذلك الفرع الأصلى الذى منه خرج محمد فأعطاهم ذلك ففسوا الجنان ونعيمها بذلك الفرع لأنهم إذا نالوه فرحوا بربهم أن لهم هذا الرب الكريم الذى قد نظروا إليه فى تلك الدار فلذلك وصف الجنة وجنات عدن ثم قال : (ورضوان من الله أكبر) فهذا أكبر من جنة عدن " (1). وهذا أمر الولاية : قرينة الله هى القصد الحقيقى الذى يصلون إليه بعد مرورهم بالجنان . وبكلمات أخرى: هذا أمر الذين أحبوا الله وما أرادوا شيئاً سوى وجهه منذ البدء .

وأخيراً تهدى هذه الرحمة الإلهية الناس عن طريق التجربة إلى التدبير الإلهى وتعلمهم بأن " من لا يرحم لا يُرحم " . ويضيف الترمذى بأن الرحمة أصل ضرورى لأخلق كل بنى آدم : " روى عن موسى : أنه قال يا رب أوصلتنى بصلة الرحم فكيف بمن تباعد من أرحامى فى

(1) تفسير (فأناهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) ، من مخطوطة بيتى 117 أ ، 117 ب.

مشارك الأرض ومغاريها قال يا موسى أحب لهم ما تحب لنفسك " وروى
عن كعب قال إن سرك أن تصل رحمك ما بينك وبين آدم فأحب لهم ما
تحب لنفسك و روى أبوهريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أحب
للناس ما تحب لنفسك⁽¹⁾.

السعادة البدائية عند ابن عربي

أما ابن عربي فهو كذلك يعتقد بأن كل الناس سوف يعرفون في
آخر الأمر السعادة الدائمة . وبيان ذلك في تفسيره لقوله تعالى: (وَمَا
خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) فصرح بالسبب الذي لأجله أوجدنا
وهكذا العالم كله "⁽²⁾. ولهذا السبب ، عندما يرجع الخلق إلى بدنه ، يرجع
على الحالة التي يصفها بقوله : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي
فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) أى ليس لهم فى ذلك تبديل وهذه
بشرى من الله بأنه لم يطرنا إلا على الإقرار بربوبيته فما يتبدل ذلك
الإقرار بما ظهر من الشرك بعد ذلك فى بعض الناس لأن الله نفى عنهم
أن يكون لهم تبديل فى ذلك بل هم على فطرتهم وإليها يعود المشرك يوم
القيامة عند تبرئ الشركاء منهم وإذا لم يصف التبديل إليهم فهي بشرى
فى حقهم بما لهم إلى الرحمة وإن سكنوا النار فبحكم كونها داراً لا كونها
دار عذاب وآلام بل يجعلهم الله على مزاج ينعمون به فى النار بحيث لو

(1) مخطوطة شمس بى ، ص 79 أ.

(2) فتوحات 1/ 120.

دخلوا الجنة بذلك المزاج تألموا لعدم موافقة مزاجهم لما هي عليه الجنة من الاعتدال . وهو يشرح كيفية هذا الأمر في كتابه فصوص الحكم ويقول : " وأما أهل النار فمآلهم إلى النعيم ولكن في النار إذ لا بد لصورة النار بعد إنهاء مدة العقاب إن تكون برداً وسلاماً على من فيها وهذا نعيمهم فنعيم أهل النار بعد استيفاء الحقوق نعيم خليل الله حين ألقى في النار فإنه عليه السلام تعذب برويتها وبما تعود في علمه وتقرر أنها صورة تؤلم من جاورها من الحيوان وما علم مراد الله فيها ومنها في حقه ⁽¹⁾ . في هذا الموضوع تختلف آراء ابن عربي عن أفكار الترمذى الذى كان يتكلم عن " خروج من النار " أما ابن عربي فهو يتمسك بنص القرآن ويقول إن أهل النار سيبقون في النار خالدين ولكنهم سعداء فيها . كذلك يصل المؤلف إلى نفس النتيجة ولكن عن طريق آخر بل يقترب كثيراً من الترمذى من جهة أخرى عندما يقول : الرحمة أولى الصفات الإلهية كلها وأنها الصفة التى لها الفضل على كل الصفات الأخرى : "الحكم للسابق فإن اللاحق متأخر عنه ولهذا السابق يحوز قصب السبق (هنا آدم وذريته) وقد تجاوز غضب الله ورحمته في هذا الشأن فسبقت رحمته غضبه فحازتنا ثم لحق الغضب فوجدنا في قبضة الرحمة قد حازتنا بالسبق فلم ينفذ للغضب فينا حكم التأبيد بل تلبس بنا للمشاهدة بعض تلبس لما جمعنا مجلس واحد أثر فينا بقدر الاستعداد منا لذلك فلما

(1) فتوحات 2 / 534 / 535.

انفصلت الرحمة من الغضب من ذلك المجلس أخذتنا الرحمة بحيازتنا وفارقنا غضب الله⁽¹⁾.

يضيف ابن عربي في كتابه فصوص الحكم : " اعلم أن رحمة الله وسعت كل شيء وجوداً وحكماً وأن وجود الغضب من رحمة الله بالغضب . فسبقت رحمته غضبه أى سبقت نسبة الرحمة إليه إلى نسبة الغضب إليه . ولما كان لكل عين وجود يطلبه من الله ، لذلك عمت رحمته على عين فإنه برحمته التى رحمه بها قبل رغبته فى وجود عينه ، فأوجدتها فلذلك قلنا إن رحمة الله وسعت كل شيء وجوداً وحكماً . والأسماء الإلهية من الأشياء وهى ترجع إلى عين واحدة فأوما وسعت رحمة الله شينية تلك العين الموجودة للرحمة وبالرحمة فأول شيء وسعت الرحمة نفسها ثم الشينية المشار إليها ثم شينية كل موجود يوجد إلى ما لا يتناهى دنيا وآخرة وعرضاً و جوهراً ومركباً وبسيطاً⁽²⁾ . فقيد رحمة الوجوب وأطلق رحمة الامتنان فى قوله تعالى : (ورحمتى وسعت كل شيء) حتى الأسماء الإلهية أعنى حقائق النسب فامتّن عليها بنا فنحن نتيجة رحمة الامتنان بالأسماء الإلهية و النسب الربانية ثم أوجبها على نفسه بظهورنا لنا وأعلمنا أنه هويتنا لنعلم أنه ما أوجبنا على نفسه إلا لنفسه فما خرجت الرحمة عنه⁽³⁾ .

(1) فصوص الحكم 1 / 169 .

(2) فصوص الحكم 1 / 177 .

(3) فصوص الحكم 1 / 153 .

لكن الفرق الكبير بين هذه النظرة ونظرة الحكيم الترمذى أن فى نظام ابن عربى : محمد هو السبب الوحيد لهذه النجاة من النار وذلك لأنه فى رأيه سبق وجود محمد كل خلق فى علم الله الدائم . تسمى هذه الواقعة على حسب الظروف : حقيقة محمدية ، نور محمدى ، أو كلمة محمدية . ولكن يتخذ هذا التصور فى منهاجه شكلاً فلسفياً تاماً ويكون النور المحمدى فى هذا المنهج أصل بدء كل وجود وجوهر الكون بكامله . أما هذا خاصية الحب عند الحكيم الترمذى . كذلك سبقت هذه الحقيقة المحمدية كل شئ فى الكون وهى أصل الرحمة التى بها يُخرج الله الناس كلهم [المؤمنين فقط عند الترمذى كما رأينا] من النار : " فهو أول شافع بإذن الله وأرحم الراحمين آخر شافع يوم القيامة فيشفع الرحيم عند المنتقم أن يخرج من النار من لم يعمل خيراً قط فيخرجهم المنعم المتفضل وأى شرف أعظم من دائرة تدار يكون آخرها أرحم الراحمين وآخر الدائرة متصل بأولها فأى شرف أعظم من شرف محمد حيث كان ابتداء هذه الدائرة حيث اتصل بها آخرها لكمالها . فبه سبحانه ابتدأت الأشياء وبه كملت ... فلا فلك أوسع من فلك محمد فإن له الإحاطة وهى لمن خصه الله بها من أمتة بحكم التبعية فلنا الإحاطة بسائر الأمم " (1) . وقد شرح قبل ذلك أن " أول شئ أوجده الله الأعيان مما يتعلق به علم هؤلاء الملائكة وتدبيرهم الجسم الكلى وأول شكل فتح فى هذا الجسم الشكل

(1) فتوحات 1/ 144.

الكروى المستدير إذ كان أفضل الأشكال⁽¹⁾. نجد هنا فكرة كمال الشكل الكروى التى هى أصل نظام فيثاغورس وأفلاطون وبعدهم أكثر الفلاسفة من اليونانيين والعرب . وفى نظام ابن عربى هذا الشكل الكامل هو شكل فلك محمد .

وبكلمات أخرى فى هذا العالم يقول : " أول بدء الخلق هو الهباء وأول شئ موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية⁽²⁾. إذن لا يكون العالم الأعلى غير الحقيقة المحمدية نفسها وفلكها الحياة نظيرها من الإنسان اللطيفة والروح القدس⁽³⁾. ولذلك أيضاً هى تقترن بالمحرك الأول فى فصل الفتوحات المكية المسمى معرفة دورة فلك سيدنا محمد : "أعلم أيدك الله أنه لم خلق الله الأرواح المحصورة المدبرة للأجسام بالزمان عند وجود حركة الفلك لتعيين المدة المعلومة عند الله وكان عند أول خلق الزمان بحركته خلق الروح المدبرة روح محمد ثم صدرت الأرواح عن الحركات فكان لها وجود فى عالم الغيب دون عالم الشهادة وأعلمه الله بنبوته وبشره بها وآدم لم يكن إلا كما قال بين الماء والطين⁽⁴⁾ .

إن هذا التصور للحركة موجود فى نظام أرسطو وهو مشهور عند كل الفلاسفة اليونانيين القدماء بأن الحركة الدائرية هى التعبير التام

(1) فتوحات 1/ 122.

(2) فتوحات 1/ 118.

(3) فتوحات 1/ 120.

(4) فتوحات 1/ 143.

لعبادة الكون لخالقه . وفى كتابه فصوص الحكم التى يقول عنه أبو العلا عفيفى أنه " كتاب ذو فلسفة محجوبة " ⁽¹⁾. يبين ابن عربى فى الفصل المسمى فص حكمة فردية روحا ، هى الحقيقة المحمدية نفسها : " هو كلمة محمدية بأن شخصية محمد التاريخية " محمد بذاته جسماً و أكمل موجود فى هذا النوع الإنسانى ولهذا بدء به الأمر وختم ... ولما كان حقيقة تعطى الفردية الأولى بما هو مثلث النشأة " ⁽²⁾ ويثبت ذلك عن طريق الحديث التالى : " حبيب إلى من دناكم ثلاث ثم ذكر النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة " ⁽³⁾. ومن هذا التثليث يظهر الفكرة بأن محمد (فى ذاته الإنسانية) هو أصل الخلق كله ولذلك يقول إن النساء لمحمد كالطبيعة للخلق التى فتح فيها صور العالم بالتوجه الإرادى والأمر الإلهى الذى هو نكاح فى عالم الصورة العنصرية " ⁽⁴⁾. وفى الحديث قدم النساء لأنهن محل الانفعال كما تقدمت الطبيعة على من وجد منها بالصورة . وليست الطبيعة على الحقيقة إلا لنفس الرحمانية فإنه انفتحت فيها صور العالم أعلاه وأسفله . إن فى نظر ابن عربى هنا النساء رمز المادة التى عليها طبعت صور كل شئ وهى مثل الهيولى عند الفلاسفة .

(1) ابن عربى فيلموف صوفى اصطنع أساليب الصوفية و رموزهم للتعبير عن فلسفتهم وهذا سبب من أسباب التعقيد الذى نلمسه فى كل سطر من أسطر كتبه لا سيما كتاب الفصوص فإن القارئ لهذا الكتاب لا يعاد يظفر بالفكرة الفلسفية فيه حتى يجدها وقد غابت عن نظره تدريجاً تحت ستار من الرمزية شرح الفصوص، أبو العلا عفيفى ص 10.

(2) فصوص الحكم 1/ 214.

(3) فصوص الحكم 1/ 214.

(4) فصوص الحكم 1/ 218.

ولكن الفرق بين نظام ابن عربى ونظام الفلاسفة أن الهيولى عنده ليست قديمة كما تكون عندهم بل هى تتأخر على الخلق مثلما تتأخر النساء على الرجال لذلك استعمل كلمة النساء التى لها صلة بالنساء يعنى التأخير كما قال فى القرآن (إنما النسئ زيادة فى الكفر) وأيضاً لهذه الهيولى صلة بالرحمة لأنها ليست إلا النفس الرحمانى .

ثم جعل الخاتمة نظيرة الأولى فى التأنيث (يعنى الصلاة التى بفضلها يرجع الإنسان إلى رحمة البدء) وأدرج المذكر (يعنى الطيب وهو واهب الصور عند الفلاسفة) ويقول إن معنى ذلك أن الرجل مدرج بين ذات ظهر عنها (الطبيعة) وبين امرأة ظهرت عنه (الصلاة) وهذا المذكر أعطاه الله رتبة الفاعلية فى عالم الأنفاس التى هى الأعراف الطيبة فحبيب إليه الطيب . فهو بين تأنيثين كآدم بين الذات الموجودة عنه وبين حواء الموجودة عنه .

ومحمد هو صاحب مثلث النشأة ليس فقط عن طريق حقيقته القديمة ولكنه كإنسان ونبى لأنه حُبب الثلاثة الأشياء (أحبيت النساء والطيب وجعلت الصلاة قرّة عينى) التى تشاكل وجود الفلك بكامله : البدء وهو النساء صورة الطبيعة ، كون الفلك المخلوق ، وهو الطيب صورة القوة الفاعلية وأخيراً الختم وهو الصلاة كطريقة الرجوع إلى الرحمة البدائية .